

الإيمان.. المنبع الأول للسعادة



«لَا سعادة بلا اطمئنان، ولا اطمئنان بلا إيمان، وكما يقول القرآن الكريم فإنه: (أَلَا بِذِكْرِ
اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ) (الرّعد/ 28).

وفي الحقيقة فإنَّ الإيمان يمنحك السعادة من جهتين:

الأولى: من جهة أَنَّه يمنعك من الانزلاق في مستنقعات الفجور والجريمة، وهي من أخطر أسباب التعاسة والشقاء، فلا شيء يضمن للمرء أن لا تجرُه شهواته ورغباته إلى الموبقات إذا كان قلبه فارغاً من الإيمان بربه؟.

الثانية: من جهة أَنَّه يعطيك أهم شرط من شروط السعادة؛ وهو الاطمئنان، ففي بحر المشاكل والأزمات لا مرساة للنجاة سوى الإيمان، فمن دون الإيمان كلُّ شيء هو عامل من عوامل الخوف والقلق، أما مع الإيمان فلا شيء يستحق الخوف سوى مقام الله تعالى.

(أَلَا إِنَّ أَوْلَيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ) (يونس/ 62).

(فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهْقًا) (الجن/ 13).

يقول الحديث الشريف: "من خاف الله، أخاف الله منه كلُّ شيء. ومن لم يخف الله أخافه الله من كلُّ شيء".

فالقلب المؤمن يستهين بكلِّ الصعاب، لأنَّه يتوكל على الله.

والقلب الفارغ من الإيمان كورقة مقطوعة من غصنها، تتلاعب بها الرياح الهوج.

ترى أي شيء يخيف الإنسان أكثر من الموت والرحيل عن هذه الحياة؟!

إنّه عند المؤمن ليس عامل خوف، بل عامل اطمئنان أيضاً فـ"ما أَنْفَعُ الْمَوْتَ لِمَنْ أَشْعَرَ الإِيمَانَ وَالْتَّقَوَ قَلْبَهُ" ذلك أنّ "المؤمن": الموت تحفته والجنة سبقته.

ومع الإيمان فليس الموت إلا عامل السعادة.

يقول الإمام الحسين (ع) وقد هددوه بالموت:

"ألا وأني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الطالمين إلا بrama".

وهكذا فإنّ "سعادة الرجل في إثارة دينه والعمل لآخرته" فـ"ما أَعْظَمْ سَعَادَةً مِنْ بُوْشَرْ قَلْبِهِ بِبَرْدِ الْيَقِينِ".

ويخطئ من يظن أنّ السعادة هي في التخلص من الإيمان، والبحث بدل ذلك وراء الملذات العابرة.

فما قيمة لذة، إذا أعقبتها ساعات من المعانة؟.

فما خير بخير بعده شر؟.

وما قيمة وردة، إذا كان الوصول إليها يغررك في مستنقع؟.

حقاً إنّ من يبحث عن اللذة من دون الالتزام بالمسؤولية، ولا مراعاة للحدود والمقايس، قد يعاني من الشعور بالتعاسة لفترة طويلة.

فالطفل الذي يأكل كمية كبيرة من الحلويات، لأنّ فيها طعم السكر، سيعاني كثيراً من الحرمان من كلّ ما لذّ وطاب عندما يصاب بتآكل أسنانه.

"فكم من أكلة منعت أكلات" كما يقول الإمام عليّ (ع).

وكم من لذّة منعت لذات؟.

ثمّ إنّ الإيمان يعطيك الحب، والأمل، واليقين، والراحة النفسية، والشعور بالقيمة، وهذه اهتزازات عظيمة تجذب مثيلاتها.. يقول الإمام عليّ (ع): "خلو الصدر من الغل والحسد، من سعادة المتبعد".

تقول إحدى النظريات: إنّ لكلّ شيء في الكون اهتزازه وعليك أن تعرف (كيف) تجذب كلّ ما أنت راغب فيه. وليس من العبث أن يقال عن مثل أعلى وعن عاطفة إنهما (مرتفعان) أو (منخفضان)، فاللغة تعبّر تماماً التعبير عن الحقيقة، وفكرة الأمل، والحب المنبع من كلّ أناانية، والإعجاب، والسماح، تخلق فينا اهتزازات سامية، سريعة، تنضمّ إلى الاهتزازات المماثلة وتشكل معها ظاهرة قوية. حين نشعر بما نحطّط فإنّ اهتزازاتنا تنخفض، وتتباطئ، ولا يبقى شيء مما هو سعيد ومنسجم في حفل الجاذبية عندنا. من هنا نعلم كيف نفقد أعظم الآمال. إننا كالحجر المغناطيسي الذي فارقه المغناطيس، ويلزمنا جهد واعٍ لكي نحرك اهتزازاتنا من جديد في سبيل تحقيق آمالنا.

وللمؤمنين طريقة قوية في تحرير الاهتزازات الواهنة؛ هي الصلاة، والدعاء إلى الله، والاستسلام لمشيئته. إنّ الصلاة التي يتلوها المؤمن عدد مرات باليوم تمنحه من التألاق الروحي ما يمنحه خبره اليومي لحاجاته الجسدية، أما الحالون من الإيمان فلا ينفعهم شيء في هذه الحياة بدونه.

إنَّ الْخُورَ فِي قَوَافِلَ لَا يَفْسِرُ إِلَّا بِبَطْءٍ فِي حَيْوَيْتِكَ، وَلَيْسَ أَمَا مَكَ سُوَى الإِيمَانَ فَهُوَ يَنْتَشِلُكَ مَا أَنْتَ فِيهِ، وَيُزِيدُ مِنْ قُوَّتِكَ، فَتَعْلُقُ بِهِ وَسْتَشْعُرُ بِأَرْتَفَاعٍ مَعْنُوِيَّاتِكَ، إِنَّكَ بِذَلِكَ تَجْتَذِبُ السُّعَادَةَ كَمَا يَجْتَذِبُ الْمَغْناطِيسُ الْحَدِيدَ.

يقول الحديث الشريف: "عَظَمَ السُّعَادَاءُ بِالإِيمَانِ، وَخَذَلَ الْأَشْقِيَاءُ بِالْعُصَيَانِ مِنْ بَعْدِ إِتَامِ الْحَجَةِ عَلَيْهِمْ بِالْبَيَانِ، إِذَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَارَ الْحَقِّ وَسَبِيلَ الْهُدَىِ".

إنَّ هُنَاكَ جَانِبًاً آخَرَ فِي الإِيمَانِ لَا يَقُلُّ أَهْمَيَّةُ مَا سَبَقَ، وَإِنَّ كَانَ ذَلِكَ مَا يَخْتَصُ بِهِ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ كُلَّهُمْ.

وَأَعْنِي بِهِ مَا يَلْمِسُهُ الْمُؤْمِنُ مِنْ سُعَادَةِ الْقَرْبِ إِلَى إِلَهِ تَعَالَى، وَالشُّعُورُ بِرَضْنَاهُ.

يقول العلامة السيد محمد تقي المدرسي:

" حين تسأل المؤمنين لم تصلون؟ ولماذا ترثكون؟ وما هي غاية يتكم من التقوى.. والالتزام بسائر شرائع الدّين؟ فإنَّ أغلبهم يقولون لكي نسعد في الحياة، ونبلي الفلاح في الآخرة. أوليس الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر وتبعث في النفس السكينة. وفي المجتمع الحب والأمل والحيوية؟ أوليس الزكاة ترد الفجوة بين الطبقات، وتنمي الثروة، و تعالج مشكلة الفقر، وتخلق المجتمع الفاضل؟،

وهكذا شرائع الله تهدف إلى إنشاء مملكة العدل والحرية والرخاء والسعادة في هذه الدنيا، وفي الآخرة حيث أعد الله للمتقين جنات تجري من تحتها الأنهر، فيها كل ما تشتهي النفس ويتنعم البدن وتلتذذ الروح".

ولكم من المؤمنين رجال بلغوا درجة سامية من المعرفة، لذلك تختلف إجاباتهم كليةً.

إنَّهُمْ لَا يَهْدِفُونَ مِنْ وَرَاءِ الْمَصَلَةِ حَيَاةً سَعِيدَةً أَوْ حَنَّةَ خَلْدٍ وَنَعِيمٍ فِيهَا مَقِيمٌ. إِنَّمَا يَبْتَغُونَ بِهَا رِضْوَانَ اللهِ وَذَلِكَ عِنْهُمْ أَكْبَرُ وَأَسْمَىٰ. إِنَّهُمْ يَتَلَوُنُ عَلَيْكَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَبَيَّنُ أَهْدَافَ الْمَصَلَةِ بِمَا يَلِي:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ).
(العنكبوت/ 45).

بلى ذكر الله، والتقرب إليه سبحانه وتعالى هو الأكبر.

وإذا سألكم عن الإنفاق في سبيل الله يقرأون عليك الآية الكريمة:

(خُذُوهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيَّهُمْ بِهَا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ) (التوبه/ 103).

فالزكاة تزكية النفس؛ وتزكية النفس قربة إلى الله تعالى، وصلة الرسول إنها هي الغاية.

وكذلك سائر العبادات ليست وسيلة إلى السعادة في الدنيا وفي الآخرة وحسب، وإنما هي قبل ذلك زلفى من الله وابتغاء رضوانه.

وأخيراً، فإنَّ هنالك حقيقة هامة وهي أنَّ لا سعادة لأحد بدون تقدير من الله تعالى، سواءً آمن أحدنا بذلك أم لم يؤمن، فليست السعادة ممكنة، إلا إذا أراد الله لنا ذلك.

وهذا ما يفسّر لماذا يسعد البعض في الحياة بأسباب معينة، بينما يشقى آخرون بالرغم من توفر تلك الأسباب لهم. وربما بسبب نفس الأسباب أيضاً.

ودور الإيمان هنا هو في أن نطلب من رب العزة والجلال أن يجعلنا سعداء، ويوفر لنا أسباب النجاح، ويرشدنا إلى سبل خير الدنيا والآخرة.. فمن دون إرادته لن ينفع كل ما في الحياة في توفير ذرة من السعادة.

وهكذا فإن "السعادة هبة من الله تعالى يمنحها لمن يشاء، ساعة يشاء، وكما يشاء. ويسلبها من يشاء، ساعة يشاء، وكيف يشاء. وهو في خلقه شؤون.. ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون.

غير أن "ذلك لا يعني أن" السعي وراء السعادة باطل، بل يعني أنها كالرزق والنجاح، حاجة إلى توفيق الله تعالى، بالإضافة إلى السعي، والعمل والنشاط.►

المصدر: كتاب كيف تتمتع بحياةك وتعيش سعيداً؟